# الفتن في السنة النبوية

## (رؤية لواقع الأمة الإسلامية ومنهج التغيير) *

لقد جمعت السنة النبوية من دلائل الإعجاز ما لا ينكره إلا جاحد ولعل من أهمها ما جاء في أبواب الفتن والملاحم حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وهوالذي لا ينطق عن الهوى، بما ستؤول إليه هذه الأمة وما سيعصف بها من محن وبلاء، فكان ما أخبر به دليلا خالدا على صدق النبوة، الأمر الذي يؤكد حاجتنا الملحة، في كل عصر من العصور إلى قراءة متجددة، وفهم متدبر للسنة النبوية يقوم على أساس من حفظ الثوابت ومراعاة المتغيرات.

وإن كنا لا ننكر الجهود العظيمة التي بذلها علماء الإسلام في دراسة السنة جمعا وشرحا، وتتبعا لحال الرواة، وتمييزا لمراتب الحديث... إلا أنها تضل أفقا رحبا للبحث ودراسة التداعيات المعاصرة وسبل التعامل معها، ذلك أن ما تضمنته من بيان معجز لواقع الأمة الإسلامية لا يمكن أن يقف البحث فيه عند حدود الشرح والتوصيف إنما يجب أن يتعداه إلى معرفة أسباب الداء ومنهج التغيير، على أساس من الفهم الصحيح للاحتياجات الراهنة، وفي ظل الإدراك الواعي للتغيرات المتسارعة.

ومن النبوءات النبوية التي يؤكدها الواقع المعاصر نذكر نماذجا على وجه التمثيل لا الحصر:

– كثرة القتل وتقارب الزمان: وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم "يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح، وتظهر الفتن ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله أيهم هو، قال القتل القتل"[1].

أما تقارب الزمان فواقع في أيامنا هذه وهذا الحافظ ابن حجر[2] وهو في عصر بعيد عن عصرنا يقول: فإنا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبله... والحق أن المراد نزع البركة من كل شيء حتى الزمان.[3]

وأما كثرة القتل فما يشهده أبناء الإسلام من ترويع وإزهاق للأنفس بسبب ودونما سبب لغني عن البيان، رعى الإسلام للنفس حرمتها وجعل قتلها بغير حق كقتل الناس جميعا، وعبث الجهلاء بهذه الحرمة فاستسهلوا إزهاق الأنفس، وإراقة دماء الأبرياء باسم الدين تارة، وهومن ذلك براء، أولهوى ذميم في النفس غلب عليها فغابت خشية الخالق عز وجل واستحضار شديد عقابه.

– غربة الإسلام: قال صلى الله عليه وسلم "إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا"[4]، والإسلام اليوم غريب بين أهله لا يعرفون منه إلا الإسم، ضيعت حدوده وغابت روحه وجوهره واقتصر منه على

---

* أ.سرير خيرة– قسم العلوم الإسلامية– كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية– ج. وهران.

الشعائر التعبدية، التي كثيرا ما تمارس بصورة آلية بعيدة عن المقاصد التي شرعت لها، وإلا لما كان هذا حال الإسلام والمسلمين.

– تداعي الأمم على الأمة الإسلامية: قال صلى الله عليه وسلم "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت"[5].

لقد أصبح من الواضح استهداف الأمة الإسلامية من مراكز القوى الاقتصادية والإيديولوجية ومحاولة استلاب فكرها وحضارتها وتمييع هويتها ومصادرة حقها في العيش الكريم في وقت نعيش فيه حالة من الوهن والضعف على كثرة أبناء الإسلام، ولكننا كما قال عليه السلام غثاء كغثاء السيل.

– التقليد الأعمى للغرب: وهومن مظاهر الاستلاب الفكري والحضاري وضياع الهوية الإسلامية حيث أدت حالة الوهن والضعف التي تعيشها الأمة إلى خلل في فهم الإسلام، فنسب إليه القصور والعجز، وتهافت المسلمون على عادات الآخر، وتقاليده في شتى مجالات الحياة، ظنا منهم أنها مظاهر القوة وعلامات التقدم، وهم في ذلك لا يأخذون إلا المعاني الفارغة والصور الزائفة[6]، والحق أن القصور خالط الأفهام، والشريعة منه براء قال صلى الله عليه وسلم: "لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع حتى لودخلوا جحر ضب لدخلتموه، قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى قال نعم"[7].

والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم.[8]

– رفع الأمانة: قال صلى الله عليه وسلم: "إذا ضيعت الأمانة؛ فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة"[9]، وكم نرى اليوم من متصدر منصبا ليس له أهلا، وفي الناس من هوأحق به، وكم من مصلحة عطلت لا لعدم وجود من يقوم بها، ولكن أسند الأمر لغير أهله فلم يعطوه حقه.

– ظهور الكاسيات العاريات والولاة الظلمة: قال صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا" [10]؛ فأما القوم الذين يضربون الناس، فقد فسروا بأنهم الولاة الظلمة الذين يستطيلون على الناس، ويذيقونهم صنوف العذاب[11]، وأمثلتهم في الأمة كثير.

أما الكاسيات العاريات؛ فهن اللواتي يرتدين من الثياب ما لا يستر عورة، ولا يحفظ عفة، وهنّ كثيرات، حتى أضحى اللباس الشرعي في زعم البعض تقييدا لحرية المرأة، ومساسا بكرامتها، وما علموا أنها ما أمرت به إلا صونا لها ورفعة.

– رفع العلم: قال صلى الله عليه وسلم: "إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج"[12]، وفي شرح الحديث يقول ابن بطال، [13] وهوفي زمن بعيد عن زماننا: وجميع ما تضمنه الحديث من أشراط قد رأيناه عيانا، فقد نقص العلم، وظهر الجهل، وألقي الشح في القلوب، وعمت الفتن، وكثر القتل[14].

وإن كانت الأمة لا تزال تحمل بين ظهرانيها علماء أجلاء يقومون على هذا الدين، إلا أننا نجد لدى غيرهم ضعفا في الهمم، ووهنا في طلب الحق، فبين مقلد لا يفرق من الآراء بين غث وسمين، أومتطاول على ثوابت الشريعة مغير لأحكامها، بدعوى التجديد والانفتاح على الآخر، حسبوا على العلم وأهله؛ فأفتوا عن جهل؛ فضلّوا وأضلّوا.

– *المنهج النبوي في التعامل مع الفتن*: إن مثل هذه المعطيات تفرض علينا وضع تصورات منهجية لأدوات التعامل معها على أساس من القواعد الشرعية، وانطلاقا من مصادر التشريع، ولما كانت السنة النبوية، وما تعلق بأبواب الفتن منها خاصة محل الدراسة، فإن استقراء هذه النصوص يبين أسس المنهج النبوي في التعامل مع الفتن، وتوجيه ذلك نحوإحداث التغيير المطلوب وأهم هذه الأسس:

– توجيه التفكير نحوالتغيرات المستقبلية: إن أول ما يستدعي إعمال النظر في باب الفتن هوذلك التوجيه النبوي للتفكير نحو التغيرات المستقبلية، وفي ذلك توطين لنفس المسلم على مواجهة المستجدات بفاعلية، وعلى أساس من الفهم الواعي لحقيقتها. ولعل أهم مشكلة تواجه المجتمعات الاسلامة هوذلك الإغفال الظاهر لعنصر المستقبل في شتى مجالات الحياة خاصة: الأساليب التربوية والخطط الإنمائية، وحتى أبسط العمليات الاجتماعية.

وما الأوضاع الراهنة إلا نتيجة تراكمات خلفها عدم النظر في العواقب ومآلات الأمور الأمر الذي يؤكد حتمية بناء التطلعات المستقبلية للفرد من خلال الاهتمام بالدراسات المستقبلية، دون التبني الأعمى للطرح الإيديولوجي الغربي وإنما على أساس من العقيدة الصحيحة، والتأصيل الإسلامي القويم[15]، والإفادة الواعية من النتاج الفكري في هذا المجال.

– ربط الأسباب بمسبباتها: لقد بينت السنة النبوية مواضع الداء ومكامن الخلل والأسباب الحقيقية للتداعيات المعاصرة، كانحراف النفس عن العقيدة الصحيحة والاستكانة إلى الدنيا وغلبة الجهل، كما في

قوله صلى الله عليه وسلم: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا، ويصبح كافرا، يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا"[16]، وقوله: "حب الدنيا وكراهية الموت"[17].

الأسباب التي يجب أن تتضافر الجهود البحثية لبيانها من خلال استقراء النصوص، ذلك أن الكشف عنها هوالسبيل إلى التغيير المطلوب، فكثيرا ما تعزى النتائج لغير مقدماتها والمسببات لغير أسبابها [18]؛ فتغنى الأعمار وتضيع الجهود دون بلوغ الغايات والأهداف.

– بيان ما تستوجبه مواجهة الفتن (التحديات المعاصرة): بينت السنة النبوية الوسائل الواجب تحصيلها لمواجهة الفتن أوما نعبر عنه بالتحديات المعاصرة، وبذلك تكون قد جمعت بين كشف الداء وبيان أسباب التعافي، ومن أهم هذه النصوص ما جاء في سنن الترمذي عن العرباض بن سارية[19] أنه قال: "وعظنا رسول الله يوما بعد صلاة الغداة– أي الصبح– موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب؛ فقال رجل: إن هذه موعظة مودع؛ فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبد حبشي؛ فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجد"[20]، وفي لزوم الجماعة وطاعة ولي الأمر نذكر قوله صلى الله عليه وسلم أيضا: "إن الله لا يجمع أمتي– أوقال محمد صلى الله عليه وسلم– على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذّ، شذ في النار"[21]، وقوله: من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية"[22].

إن التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وطاعة الولاة واجتناب البدع كلها وسائل لتحصيل النجاة من مغبة الفتن على نفس المسلم ودينه وإحداث التغيير المنشود ذلك أن تفعيل العقيدة الصحيحة في شتى مجالات الحياة، واستتباب الأمن النفسي والمادي أهم أسس بناء المجتمع الإسلامي؛ فلا حياة له في غير ظل الشريعة، ولا قيام لشريعة في مجتمع تكثر فيه الانقسامات، وتتجاذبه الخلافات لا لدواعي الاجتهاد، إنما لغرض من الدنيا زائل أولفهم سقيم لروح الإسلام وجوهره.

– الجمع بين الإنذار والتبشير: لقد أنبأ النبي صلى الله عليه وسلم بتغير أحوال الأمة، إلى وهن بعد قوة، وجهل بعد علم... إلا أنه كما أخبر بوقوع ما نكره في أحاديث الفتن بشر في مواضع أخرى بظهور الدين، وغلبة الأمة كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها[23].

حتى لا نركن إلى اليأس، ويتسلل إلينا الوهن والضعف، فنقعد عن طلب الحق، واستجلاء سبل التغيير.

وعليه بناء التطلعات المستقبلية للأفراد والجماعات على أساس من الفهم الواعي لطبيعة التغيرات، وإدراك أسبابها الحقيقية، وسبل التعامل معها انطلاقا من مبادئ الشريعة، وتفعيلها في جوانب الحياة والفكر هي أهم الأسس التي يجب أن تبنى عليها جهود التغيير.

وما ينبغي التأكيد عليه أن إخباره صلى الله عليه وسلم عن حدوث الفتن وشدتها لا يمكن أن ينظر إليه كنوع من التثبيط الفكري والإرادي، إنه دعوة لإعمال الفكر، وصدق العزيمة في التعامل مع التغيرات الحادثة بكل ما تحمله من تحديات من شأنها أن تعصف بنفس المسلم ودينه ما لم يدرك المتطلبات الحقيقية لمواجهتها.

إنها تتطلب رؤية مجاوزة ونظرًا مُتبصرًا في معانيها ومقاصدها، يرقى بالفكر الفردي والجماعي من النظرة الآنية، إلى أبعاد للتفكير طويلة المدى تسع الحاضر بثقله، وتتجه إلى المستقبل بكل ما يمكن أن يحمل من خير وعزة ونصر متى توافرت شروط ذلك، وتبقى الجهود البحثية مطالبة بقراءات متجددة للسنة النبوية من شانها أن تسهم في صياغة الرؤى، وبناء المناهج على أساس من العقيدة الصحيحة، وفي ضوء التداعيات المعاصرة والتحديات المستقبلية.

## الهوامش

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن. باب ظهور الفتن حديث رقم 7061

(2) هوالحافظ قاضي القضاة شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الشافعي ولد سنة 773 هـ برع في الحديث وتقدم في فنونه توفي سنة 852 هـ، أنظر جلال الدين السيوطي طبقات الحفاظ، بيروت.دار الكتب العلمية. ط1. 1983 ص 552-553.

(3) أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت دار الكتب العلمية. ط1. 1989. ج 13 ص 20

(4) رواه الدارمي في سننه، كتاب الرقائق، باب أن الإسلام بدأ غريبا.حديث رقم 2715

(5) رواه أبوداوود في سننه. باب في تداعي الأمم على الاسلام وصححه الألباني، أنظر صحيح سنن أبي داوود محمد ناصر الدين الألباني. حديث رقم 3610.

(6) ولوأنهم عقلوا أسباب تقدمهم المادي وتطورهم العلمي لكان خيرا لهم.

(7) رواه مسلم في صحيحه، كتاب العلم باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، حديث رقم 2669.

(8) محي الدين النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دمشق دار الخير ط1. 1994 ج16 ص 167

(9) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة حديث رقم 6496

(10) رواه مسلم في صحيحه كتاب اللباس والزينة، باب نساء كاسيات عاريات حديث رقم 2128

(11) أبوالفضل عياض بن موسى، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصر دار الوفاء ط1. 1998 ج6 ص59

(12) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفتن، باب ظهور الفتن حديث رقم 7062

(13) هوعلي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، عالم بالحديث من أهل قرطبة له شرح البخاري توفي سنة 449 هـ، خير الدين الزركلي، الأعلام (د.ن) ج5 ص96

(14) ابن حجر، فتح الباري، مرجع سابق ج13 ص18

(15) التأصيل الاسلامي للمعرفة من أهم الغايات التي يجب أن تتجه إليها جهود الباحثين للخروج من التبعية الفكرية والوصول إلى نظرية إسلامية في المعرفة، تجمع بين حفظ الثوابت ومراعاة المتغيرات.

(16) رواه الترمذي في سننه، كتاب الفتن باب ما جاء ستكون فتن كقطع الليل المظلم، حديث رقم 2291

(17) رواه أبوداوود سبق تخريجه.

(18) إن المسبب الحقيقي هوالله عز وجل إلا أن حكمته قد شاءت أن تجري الحياة وفق سنن مطردة وأسباب ظاهرة، لا تخرق إلا لحكمة منه تعالى.

(19) ويكنى أبا نجيح من أعيان أهل الصفة، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم توفي سنة 75هـ، شمس الدين الذهبي سير أعلام النبلاء، بيروت مؤسسة الرسالة ط1. 1981 ج3 ص 419 – 422

(20) رواه الترمذي في سننه كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع حديث. رقم 2715 وقال: حسن صحيح.

(21) رواه الترمذي في سننه باب الفتن حديث رقم 2168 وقال: غريب.

(22) رواه البخاري في صحيحه كتاب الفتن باب قول النبي صلى الله عليه وسلم سترون بعدي أمورا تنكرونها، حديث رقم 7054

(23) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض حديث رقم 2889.